الفصل العاشر

ماتت لمى. بعد ظهر اليوم الذي عدت فيه إلى بغداد من ثكنة **كالسو**، زودني شقيق لمى، علي، بصورةٍ أكدت الخبر، مزحزحة إياي عن عدم تصديقي. في صورة الأبيض والأسود، كان رأسها وكتفاها بارزة من كيس موتى (كفن خاص). موتها غير قابل للإنكار. لم يكن أخوها قد حصل من الجيش إلا على القليل من الأجوبة حول كيفية موت لمى. وعلي، الذي كان في السنة الأخيرة من الطبابة المقيمة في بغداد حين قامت الولايات المتحدة بغزو العراق، رفض التسليم بالتفسير القائل إن أخته قد انتحرت، قد أطلقت النار على نفسها. كان قد عاين جروح لمى بنفسه، ثم كلف طبيباً عراقياً بالتشريح. وحسب تقرير الطبيب فإن الطلقة دخلت جمجمتها من جهة اليسار، مهشمة العظم من مسافة قريبة وخارجة من ثقب قريب من صُدغها الأيمن. لاحظ علي آثار حروق حيث أصابت الطلقة أولاً، مشيرةً إلى أن النار أُطلقت على لمى من مسافة قريبة. غير أن لمى كانت يمناء. مسار الطلقة من اليسار كان يعني شبه استحالة أن تكون هي قد ضغطت على الزناد. إذا لم تطلق هي النار على نفسها، فمن هو الفاعل؟ والأكثر أهمية، لماذا؟

أبلغني علي بأن أمه راغبةً في رؤيتي. كنت واحدة من الأصدقاء القليلين للمى قبل موتها؛ كان إطلاع أصدقائها العراقيين على مكان عملها شديد الخطر، مما أدى إلى ابتعادها عنهم. أردت الذهاب إلى المقبرة، غير أن أحداً من العاملين في المكتب لم يقبل بالفكرة. فالمقبرة التي دُفنت فيها لمى كانت واقعة على امتداد طريق مطروقة من قبل المتمردين. تعويضاً، زودني علي بشريط فيديو فتمكنت من رؤية القبر. نظرت إليه بخشوع، مواصلة استصعاب تصديق نبأ موتها. ليلاً، حلمت بأن صورة جثة لمى لم تكن إلا رؤيا، حلماً، إلى أن استيقظت فتذكرت. عندما جاءت أمها إلى المكتب، أتى عمر لمصاحبتي من غرفتي. دخلت غرفة الجلوس فوجدت امرأة في زي ديني، رأسها مغطى كاملاً. لم تكن مستخدمة أي مواد تجميل، وكانت بشرة وجهها العارية متجعدة. في المرة الأخيرة التي كنت قد رأيت فيها أم لمى، كانت ترتدي سروال جينز وقميصاً ضيقاً. وأحمر شفاه فاقع كان يغطي شفتيها. ما الذي كان قد حدث؟ ابنة لمى، سارة، كانت مع جدتها، غير أنها بدت خجولة، متحفظة عديمة الشبه بالفتاة الصغيرة المنفتحة المتحررة التي كانت لمى قد وصفتها. لم تكن العائلة قد أطلعت سارة بعد على حقيقة أن أمها ماتت، غير أنها كانت تعرف. رأت صورة أمها في إحدى مقصورات مكتب البوست، مع قصيدة شعر لوالت ويتمان مطبوعة تحت الصورة. بدت المقصورة مزاراً. مع أن الجدة والخال لم يلاحظا ذلك، فإن سارة كانت قد انتبهت إلى المشهد. بدت عاجزةً عن طرح سؤال من شأن الإجابة عنه أن تكون مثقلة بالألم. جلسنا بعضنا قبالة البعض، متقاسمين تعليقات وجيزة فيما كان عمر يتولى مهمة الترجمة. قالت أم لمى: "شكراً! شكراً على استقبالك لعائلتنا!"

"لا حاجة للشكر. أمر طبيعي! ابنتك كانت مثل أختي. أحببتها محبتي لأختي."

"لا أعلم ولكن لمى أخبرتني بأنها أطلعتك على قصتها" قالت الأم، مشيرة دون شك إلى حادثة اغتصاب لمى. "حسناً، نحن شاكرون لأنك ستتقبلين عائلتنا."

أردت أن أبصق في وجهها غَضَباً. كانت ابنتها ميتة! كانت قد تعرضت للاغتصاب؛ لم يكن ذلك ذنبها هي! ومع ذلك فإن هذه المرأة كانت مستمرة في إلقاء اللوم على ابنتها بعد موتها. أردت أن أكرهها، ولكنني لم أستطع. تحركتُ للمغادرة، انقضضتُ عليها معانقة. أجهشت بالبكاء ونقبت في ثوبها. قالت "هاك!" دافعةً قرطاً في يدي. كانت لمى تتزين به عند موتها. كذلك أعطتني صوراً لها هي، لسارة، وللمى، كلها لقطات ملونة صغيرة أصغر من صور الهوية.

علق علي: "أنت الآن أخت لنا" ومشى. شعرتُ بثقل كلماته الضاغطة على كياني. "يجب أن تساعدينا في الكشف عما حدث. لماذا ماتت؟"

تاركةً هذا السؤال معلقاً دون جواب، غادرتُ بغداد وطرتُ إلى عمان في اليوم التالي لقضاء إجازة مدتها عشرة أيام في بودابست. كنت حزينة على لمى، غاضبة من أمها، وفاقدة لعقلي إزاء العراق الغارق بهذه الفوضى العارمة. غير أن الأهم من ذلك كله هو أنني مهدودة من التعب. تهاويت في إحدى أرائك غرفة الانتظار في مطار الملكة عالية خارج عمان، انتظاراً لرحلة صباحية متجهة إلى باريس عبر العاصمة الهنغارية. أحدهم كان يشد ذراعي. فتحت عيني ونظرت بذهول. كان أحد موظفي الطيران. كنت قد غرقت في نومٍ عميق جداً إلى درجة أنني لم ألاحظ أن ركاب الطائرة، باستثنائي، كانوا قد أصبحوا على متنها، تاركين إياي في غرفة الانتظار. رحت أتمتم وأنا أفرك عيني: "يا إلهي! أنا شديدة الأسف. كنت..." التقطت حقيبة الظهر وهرعت في الممشى باتجاه الطائرة. معروفة أنا بأن نومي خفيف، إذ لا أستطيع النوم وسط أي ضجيج مهما كان ضئيلاً. أما في العراق، حيث أجهز علي الإرهاق، فصرت أنام في كل مكان، كلما لاحت أي فرصة. ومع ذلك فقد أدهشني أن أتهاوى بهذا الشكل المثير في زحمة هذا المطار الصاخب رغم أن أحداً لم يكن يطلق النار باتجاهي أو قنبلة تنفجر في الخارج. على الدوام كنت شديدة الحرص على الإصغاء إلى صوت جسدي، إلا أنني كنت أكثر تعباً من أن أسمعه مع أنه كان دائباً على إعلان مدى

هول الإرهاق الذي كان يعانيه صراخاً رحت أتساءل عما كان يمكن أن يفوتني من أشياء أخرى.

كنت بحاجة ماسة جداً إلى الاستراحة في بودابست، إلى أن أكون في مكان أستطيع أن أتحرك فيه دون خوف، دون النظر إلى الأعلى أو إلى الخلف من فوق كتفي. كنت قد أجريت استطلاعاً للرأي لدى مجموعة الصحفيين خلال معركة الفلوجة حول المكان المفضل لقضاء الإجازة. كانت النتيجة شبه الإجماعية هي "بودابست". معتدلة الأسعار. مفعمة بالحياة. غنية بالمأكولات العظيمة. نابضة بالثقافة. والأهم من كل شيء، ليست بغداد. إلا أنني لم أكن راغبةً في أن أكون وحدي. صديقتي سوزي وافقت على ملاقاتي بباريس؛ ومن هناك كنا سنسافر معاً إلى بودابست. بعد الوصول إلى هنغاريا، سافرنا بالقطار إلى الريف الجنوبي، وبعد ذلك بالحافلة إلى الشمال حيث الحدود النمساوية، عبر مشهد زاخر بجروحه الحربية، مشهد مصاب ولكنه سائر في طريق التعافي. كانت المجر مشغولة بالاستعداد لعيد الميلاد، مما أشعرني بقدرٍ أكبر من الحنين إلى أهلي مقارنةً بما كنت أشعر به في بغداد حيث لم يكن سوى القليل من العلامات المذكِّرة بالموسم. تحت تأثير الثلج والبرد، أضواء عيد الميلاد المتلألئة، الأناشيد، صدمني في المجر أنني لم أكن ذاهبةً إلى الأهل في الأعياد، بل سأكون في العراق. للمرة الأولى منذ سبعة أشهر وجدتني غارقة بعمق في بحر الحنين إلى الوطن والأهل.

في ثكنة كالسو، قبل الذهاب إلى الإجازة، كان الجنود قد أطلعوني على جميع الجوارب والرزم الميلادية التي كان الغرباء يرسلونها إليهم من الأبرشيات الطائفية، نوادي الروتاري، وفرق المرشدات المختلفة في الولايات المتحدة. أحد عناصر المارينز قدم لي أحد الجوارب هدية، وقد شعرت بالامتنان لحصولي على شيء جاء من الوطن، وما لبث امتناني أن تضاعف حين غُصْتُ في الجراب بحثاً عن الطعام في اليوم التالي. جاء فلاح، ضياء، وصباح لاستقبالي عند نقطة

التفتيش العسكرية القريبة من مطار بغداد حيث أوصلني جنود المارينز قبل بضعة أيام من ذهابي إلى المطار ثانية للمغادرة إلى المجر. لحظة عبور سائقينا وحراسنا العراقيين نقطة التفتيش انفجرت سيارة مفخخة وسط طريق المطار، فسارع الجيش إلى قطعها. بقينا محجوزين في نقطة التفتيش إلى أن تتم إعادة فتح الطريق بعد ساعة، ربما اثنتين؛ لم يكن أحد يعلم بالتأكيد. فتحت الجراب ورحت أوزع الفطائر، المكسرات، وقضبان الحلوى مقاومة للجوع. تقاسمنا المأكولات مع غرباء في الموقف موزعين كل ما كان معنا. في أثناء الانتظار، أطلعت السائقين والحرس على صورة كنت قد التقطتها لرحلة العودة على متن الهمفي إلى قاعدة **وور هورس (جواد الحرب)** بعد التسكع مع جنود حاجز تفتيش السيارات القريب من بعقوبة. محدقة عبر النافذة القذرة للمقعد الخلفي، كنت قد رصدت أربع غيمات صغيرة، ناحلة. كانت السماء مدى أزرق فسيح خالي إلا من هذه الغيمات التي بدت مثل ملائكة. أخذت صورة لأمي، لأريها أن كوكبة الملائكة التي كانت تصلي من اجلهم كانت تحرسني فعلاً.

طلبت من فلاح، ضياء، وصباح: "انظروا إلى هذه الصورة وقولوا لي ماذا تشبه الغيمات!". أمعن ضياء النظر إلى شاشة الكمبيوتر وقال بفمه الملآن بالحلوى:

"ملائكة. إنها ملائكة!"

"وأنت يا صباح، ماذا عنك؟ ماذا ترى؟"

"أرى طيوراً."

"وأنت يا فلاح!"

"إنها قنابل. هي قنابل موشكة على أن تسقط لتقتلكم."

ضحكنا بعصبية من فلاحنا العابس الذي كانت حياته قد انحدرت إلى الحضيض منذ حادثة دان وليمز على الطريق من الفلوجة. ففلاح الذي كان على

الدوام أحد أكثر عراقيينا مرحاً، مخلصاً للرب ولأسرته، بات الآن يعدّ نفسه من الأموات. وواقع بقائه حياً لم يكن يعني سوى أنه كان قد نجح في مراوغة الشياطين الذين كانوا يطاردونه. فالجيران يتعقبونه. المتمردون يطاردونه. الأمريكيون يطلبون روحه. جميع من في العراق، أفراداً وقوى، كانوا يحاولون بدأب إطفاء الحياة المتجسدة بفلاح. كان كارل قد عرض فلاحاً على طبيب نفسي في المنطقة الخضراء. كان فلاح بالغ الصراحة بشأن خوفه، بشأن انسحاقه تحت وطأة الرعب من قرب موعد تعرضه للقتل برصاص المتمردين. لم يعد إلا شبحاً، يمشي نائماً في النهار لأنه لم يكن يستطيع أن يغمض عينيه في الليل. كان غاضباً، موشكاً على الانفجار. كان يريد أن يبقى غارقاً في العمل لينأى بعقله عن التفكير بخوفه، غير أننا كنا نخاف أن نخرج معه، نخاف من أن ينفجر في اللحظة الخطأ جراء صيرورته كثير الاضطراب.

قلقت على فلاح وأنا في المجر. عاينت بريدي الإلكتروني يومياً، بحثاً عن تقارير إخبارية من الشباب في بغداد، ومسحوقة تحت وطأة امتلاك القدرة على الكشف عن حقيقة موت لمى. حتى في هذا البلد البارد، غارقة في بحر مجوهرات عيد الميلاد، لم أستطع أن أنأى بنفسي كلياً عن العراق. كنت خائفة من فقدان القدرة على العودة إذا فعلت.

وأنا في بودابست اتصل ديفيد هوفمان ليسأل عما إذا كنت مستعدة للتفكير بشغل منصب رئاسة المكتب عند رحيل كارل عائداً إلى تركيا في شباط/فبراير. لم تكن لدي أي فكرة حول الموضوع. تحدثت معه حول المسألة من الواجهة الباردة، المرتجفة لمخزن صور قديمة في أحد شوارع بودابست المزدحمة الملأى بالمتسوقين. من ناحية، كنت شديدة الاعتزاز بالترشيح للمنصب. كنت أرى بأم عيني واقع تحولي إلى مراسلة خارجية حقيقية. لقد كنت العضو الأصغر سناً في المكتب وها هو ذا ديفيد الآن يسألني عما إذا كنت مستعدة لتولي إدارته. بعد أن وعدته بالتفكير قلت: "إليك القضية يا ديفيد. لا أريدك أن تطلب مني لعدم

وجود غيري. أريدك أن تطلب لأنك مقتنع بأنني الشخص الأفضل لشغل الوظيفة." كنت اعلم أن ديفيد كان يعاني من صعوبة ملء الشاغر، ولم أكن راغبة في أن أكون رئيسة مكتب نجح في سحبها المظفر من قاع البرميل. حقاً كنت أريد أن أفكر بالأمر، أن أقدر الوقت الإضافي الذي أستطيع تحمله بعيدة عن الوطن، الوقت الإضافي الذي كانت أختي وعائلتي تستطيعان أن تطيقاه. كنت أعلم أن وجودي في العراق كان يشكل عبئاً ثقيلاً جداً عليهما. ما مدى الأنانية المتجلية في الموافقة على البقاء في العراق شهراً بعد آخر، وهما تعانيان من القلق؟ ظل هذا السؤال يقض مضجعي في الليل المجري المظلم وأنا أستمع إلى صوت ديفيد الرتيب، الصبور على الطرف الآخر من الخط الهاتفي. قررت حسم الموضوع عند عودتي إلى بغداد. أما الآن فكان علي أن أهتم أولاً بهدايا عيد الميلاد.

أسعدني أن أكون قادرةً على التسوق في المجر، على الاستمتاع بعملية المشي البسيطة داخل هذا المخزن أو ذاك، متوقفة أمام فناجين الشاي والصمديات البراقة. في العراق، مع حلول شهر كانون الأول/ ديسمبر، كلما شعرت بحاجة إلى شيء، كان يتعين علي أن أرسل فلاحاً لجلبه. كنت أرجو أن أصدقائي وأقاربي كانوا، رغم غيابي، سينظرون إلى هذه الهدايا فيدركون أنني أفكر بهم. وأنا في العراق درجت روتينياً على التسوق على الخط متصورة أصحاب الهدايا فاتحين أبوابهم هناك في الولايات المتحدة أمام مفاجأة طرد غير متوقع. تصورتهم ولسان حال كل منهم يقول: **لم تنسني!** ربما كانت تلك طريقة مكنتني أنا أيضاً من أن أقول: **لا تنسوني! مازلت موجودةً هنا وإن لم تكونوا قادرين على لمسي**. ابن أختي آيدان كان المستفيد الرئيسي من جولات تسوقي الإنترنتية. فكلما وجدت فرصة للاتصال كنت أسارع إلى تزويد آيدان بلعبته المفضلة توماس الدبابة. خلال معركة الفلوجة قام صهري بيتر باستلام علبة استثنائية الضخامة من ساعي البريد. فتحها ليكتشف منشفة توماس للمسبح، فرشاة أسنان توماس، وسادة توماس، وطبق عشاء مع كأس من طراز توماس. حين اتصلت للتأكد من

وصول العلبة قال لي بيتر: "لا أريد حتى أن أعرف ما حصل". والصدق هو أني لم أستطع حتى أن أتذكر. كانت تفاصيل تجارب مراقصتي للموت قد بدأت تتطمس آخذة شكل توماس الدبابة هناك في الوطن.

بوصفنا صحفيين في العراق، لم نكن متمتعين بحق استخدام نظام البريد العسكري، مما جعل متعذراً على أهلنا أن يراسلونا. كانت جني قد زودتني وأنا مغادرة إلى العراق بخمس عشرة رسالة أفتح واحدة منها كل أسبوع أمضيه في العراق. حفظتها في درج طاولتي في المكتب ورحت أفتح واحدة كل يوم أحد. فأيام الأحد كانت أيام طقوس في العائلة أيام الطفولة والشباب المبكر. كنا نذهب إلى الكنيسة، ثم نتناول العشاء معاً، ويكون عادةً سطلاً من الفروج المقلي الكنتكي الذي يتم شراؤه على الطريق إلى البيت. كان البابا يتابع سباقات ناسكار بعد ظهر الأحد. كانت الماما تجلس على الطرف اليميني من الصوفا، دون اليساري على الإطلاق، وتعاين إعلانات البقاليات الدعائية إلى أن تنعس فتنام. أما نحن الصغار فكان لدينا وقت هدوء في غرفنا، للقراءة، لأخذ غفوة، أو لكتابة الوظيفة. ليلاً، كثيراً ما كنا نزور الجدين اللذين كانا حتماً يتابعان برنامج لورنس وَلْكْ على التلفزيون. أما في العراق فإن رسائل جني كانت هي طقوسي. كل ظرف كان يحتوي على صورة وتعليق أحمق هادف إلى إضحاكي. إحداها تجمِّد أبوي في إحدى حفلات رأس السنة وقد اعتمرت الماما تاجاً فضياً براقاً. صورة أخرى تظهرني راقصة مع أخي في إحدى حفلات الزفاف. وفي صورة ثالثة أكون مرتدية فستاناً ريفياً مطرزاً يدوياً. شكلت هذه الصور لحظات بريئة لطفولة أمريكية عامة، منعشة للذاكرة في مكان تحرص فيه أمهات كثيرات على إبقاء أولادهن في البيت خوفاً من العنف القابع وراء الباب. شعرت بالسعادة من ناحية وبالتعاسة من ناحية ثانية. ولأنني مكثت في العراق مدة أطول مما توقعه أي منا، ما لبثت الرسائل أن نفذت. في الأحد الأول الذي كنت أعاني فيه من عدم وجود أي شيء أفتحه، قدم لي عمر ظرفاً مع صورة تظهرنا نحن الاثنين، مبتسمين معاً

فوق صخرة على ضفة نهر دجلة قرب تكريت، مسقط رأس صدام. كان قد كتب على ظهر الصورة ناقشاً شعار الحياة بنظره: "كوني سعيدة على الدوام!"

لم أكن أستطيع إرسال الرسائل إلى الأهل بسهولة. في الزيارات إلى القواعد العسكرية، كثيراً ما كنت أخربش بطاقة بريدية موجزة أو رسالة صغيرة أوجهها إلى العائلة، مرسلة بريدي عبر الشبكة العسكرية المجانية. لم أكن متأكدة قط ما إذا كان مسموحاً لي رسمياً أن أفعل هذا، غير أني بررته بحجة أن أشقائي دافعي الضرائب ربما لم يكونوا ليجدوا أي غضاضة إذا ما تلقت الجدة سبنر بطاقة بريدية بين الحين والآخر، مجاملة لها من وزارة الدفاع. كذلك كنت أبعث بالرسائل إلى الوطن عبر مراسلين آخرين مسافرين من البلاد وإليها، معتمدةً نظاماً بريدياً غير رسمي كنت ألوذ به كلما استطعت. البريد الإلكتروني كان يسهل البقاء على اتصال، إلا أنني كنت مغرمة بفكرة كتابة الرسائل إلى الأهل كما كان أبي يفعل في فيتنام. ونحن صغار، أنا وأشقائي كنا نمعن النظر في هذه الرسائل مستخدمين المصباح، ساحبينها من صندوق البحرية في المستودع الكائن تحت الدرج حيث كان أبي يخزن "مواده الفيتنامية." لم يكن يتكلم عن فيتنام قط. عرفنا عنها عبر رسائله. قارئينها مرتدينقطعاً من زيه البحري المخزن هو الآخر في الصندوق. صديق أبي الحميم مايك سميث كان مظلياً في الجيش بفيتنام، ملحقاً بوحدة من المرتزقة الفيتناميين. كان يتحدث عن تجربته أكثر مما سبق لأبي أن فعل في أي وقت. في رسالة إلكترونية أرسلها بعيد محاولة اختطافي خارج أبو غريب، كتب مايك يُعْلِمُني بتأييده لقراري القاضي بالبقاء في العراق. أفصح عن أنه كان يتمنى أن يكون في موقعي. ثم ختم الرسالة بعبارات: "كنت مظلياً كما تعلمين. والطريقة التي كنا نودع بها بعضنا البعض مع تقديم مادة للتفكير متمثلة بعبارة: اطمئن. إذا وقعت في مشكلة سأهب إلى إنقاذك. ذلك هو الوعد الذي كنا جميعاً نقطعه لبعضا البعض، إنه وعدي لك!" كنت واثقة من صدقه. ليلة موت أبي ساعدنا مايك في نقل جثمانه

إلى خارج البيت مؤدياً واجب الصداقة الأخير بتنكب رفيقه إلى عربة الموتى المنتظرة. كنت أريد أن أؤمن بالمستحيل في أكثر لحظاتي إثارة للرعب، وهو ما فعلته: إذا ما أصابتني أي مصيبة في أي وقت من الأوقات فإن مايك كان سيصل لينقذني. نعم كان سينقذني من خاطفي، أو سيتولى تنكب جثتي إلى مثواها، تماماً كما فعل بالنسبة إلى أبي.

في هنغاريا، هناك في البلدة الشمالية شوبرون لم يكن أحد في مكتب البريد يتكلم الإنجليزية فتعين علي أن أشرح عملية إرسال هدايا عيد الميلاد بالبريد عبر الحركات والإيماءات. أبلغت موظف البريد برغبتي في إرسال الطرود جواً وأنا أرفرف ذراعي كالطيور قائلة "هكذا". أكثرية الطرود الأخرى المتراكمة خلف الطاولة كانت ملفوفة بأكياس خيش شبيهة بأكياس البطاطا، لا موضوعة في علب مثل طردي أنا. رفعت كتفي وضحكت. لابد لبطاقاتي البريدية من أن تصل في الحدود الدنيا. تلك التي كنت قد كلفت سوزي بإرسالها عبر البريد بعد وصولها إلى الولايات المتحدة.

في الشرق الأوسط كنت قد تعلمت فن التواصل دون كلام. في أي عالم مثالي، لم تكن **البوست** لتوفد إلا ناطقين باللغة العربية إلى العراق، إلا مراسلين لا حاجة لهم بأي مترجمين، إلا أشخاصاً قادرين على التقاط خفايا اللغة. من المؤكد أننا نتقبل الناس بقدر أكبر من المودة حين نفهمهم، إذ تشكل لغتنا المتبادلة أرضية مشتركة. عند إيفاد المراسلين إلى ما وراء البحار في مهمات طويلة الأمد، يجري إعطاؤهم وقتاً لتعلم لغة البلد الذي سيستقرون فيه. غير أن تلك القاعدة لم تكن ممكنة التطبيق لدى إيفاد المراسلين إلى العراق. لم يكن متاحاً لي أن أكرس عاماً كاملاً لتعلم اللغة العربية. حين اضطرت **البوست** إلى إرسالي تعين علي أن أذهب، بكفاءة لغوية أو دونها. لم يكن مثالياً على الإطلاق ـ لا بالنسبة إلي ولا بالنسبة إلى تغطية الأحداث الجارية في العراق ـ ألا أكون متقنة للغة العربية، إلا أنه كان أفضل ما نحن قادرون على فعله. تمثلت الإيجابية الوحيدة

للأمر بجعلي أقل خوفاً من مكان لا أتكلم لغته المحلية. تعلمت أساليب أخرى للتواصل: الإيماءات، تعابير الوجه، لغة الجسد. تعلمت قراءة اللغة بطريقة لم يسبق لي أن اعتمدتها، طريقة قائمة على الصمت الكامل. كنت، على سبيل المثال، قادرة، ونحن في المطعم بعمان، على استنتاج أن جمالاً، صديق لمى، كان قد استفز الأخيرة، وكانت هي ترد موبخة. الجملة الوحيدة التي حرصت على تعلمها قبل الذهاب إلى أي مكان جديد لا أفهم لغته هي: "أنا نباتية". لذا لم تكن لدي أي هواجس بشأن رفرفة ذراعي في مكتب بريد مزدحم من أجل إيصال فكرتي.

عندما لم أكن مشغولة بالرفرفة في المَجَر، كنت ألف بذراعي جملة الأشياء الصغيرة التي كنت قد افتقدتها وأنا في العراق ـ مستمتعة بكأس نبيذ أحمر وطاسة حساء المنسترون في مقهى دافئ مزدحم بالناس؛ دائبة على شراء اللوازم المكتبية؛ متسكعة. حرفياً أكلتُ طريقي من الشمال إلى الجنوب مجهزةً على كل شيء مع جبنة الحلّوم، طعامي المفضل، التي لم أكن أستطيع الحصول عليها في بغداد. وجودي في العراق كان قد أيقظ عندي قدراً أكبر من التذوق والاستساغة لهذه الأشياء الصغيرة. اشتريت مخللاً بحماسة مفرطة، ركضت في الطريق، وابتسمت لغرباء دونما قلق من احتمال أن يكونوا مخبئين قنابل تحت ملابسهم.

كانت حرية عابرة. عدت إلى العراق منتصف كانون الأول/ديسمبر، إلى بلد مازال نازفاً. كان العنف قد تصاعد تمهيداً للانتخابات العامة العراقية المبرمجة في كانون الثاني/يناير، وكنا لا نزال عاجزين عن الخروج وكتابة التقارير الصحفية بحرية. إيجابياً، كانت عمليات التجديد في البيت قد استكملت بأكثريتها مما أشعرني بأنني عدت فعلاً إلى بيت أو مأوى. كنت ألعب كرة السلة في الممرات مع العاملين في ساعات الصباح، تماماً كما كنت أفعل مع أبي أيام الطفولة. واصطناعاً لملعب بيزبول مناسب وضعنا صناديق من حبات البرتقال في

الباحة الخلفية. وحراسنا الذين شبوا وهم يلعبون كرة القدم في شوارع بغداد كانوا حكاماً في هذه الرياضة. أما أنا فكنت ملكة ملعب البيزبول في الباحة الخلفية، وكثيراً ما كانوا ينكفئون مغطين وجوههم بأيديهم، وأنا أمطرهم بوابل من حبات البرتقال. وبعد أربع أو خمس رميات كانت البرتقالة تنفجر متجولة إلى فرقعة عصير منبجس. لم أكن قادرة على قضاء أي وقت ذي شأن خارج الغرفة عندما كنا نقيم في الشيراتون، وقد استمتعت بالفسحة المكشوفة في المكتب الجديد. صحيح أنني لم أكن أستطيع أن أذهب إلى أي حديقة أو أمشيفي الطريق أو أخرج لممارسة رياضة الجري، غير أنني كنت متوفرة على أرجوحة منصوبة وملعب بيزبول في الباحة الخلفية، وقد كان ذلك كافياً مؤقتاً. يضاف إلى ذلك أنني كنت لا أزال متوفرة على مطبخي.

بعيد وصولي الأول إلى بغداد في أيار/مايو، كان راجيف قد عينني مسؤولة عن الطباخين. كان هو قد مل الأمر. كانت لراجيف علاقة متوترة مع رئيس طباخينا الليلي منذر، وهو طباخ مطعم سابق. لدى وصولي الأول إلى العراق كان منذر قد ترك **البوست** للتو ليعمل لدى جهة تدفع مرتباً أعلى في مكتب **السي. إن. إن.** الأكبر بما لا يقاس والقريب من فندق فلسطين. كان منذر يفضل الطبخ لأربعين بدلاً من أربعة، ويريد إثبات مواهبه المطبخية في ثلاث وجبات لا وجبة واحدة في اليوم. بدت الوظيفة الأكبر أكثر مهابة بنظر منذر وإن تطلبت قدراً أكبر من العمل. عند الرحيل، كذب منذر قائلاً لراجيف إنه أخذ إجازة. فيما بعد رآه أحد العاملين لدينا في فندق فلسطين. اعتبر راجيف الأمر خيانة عظمى، غير أنه، بدلاً من ترك منذر يذهب إلى حيث يشاء، دأب لأسابيع على التوسل إليه طالباً منه العودة. قبيل انتهاء فترة مناوبته البالغة ثمانية عشر شهراً في العراق، صار راجيف أكثر تذمراً من الطعام السيئ. تمثل أحد ثوابته المريحة القليلة بوجبة محترمة في الليل. كان منذر يعرف ما يستسيغه راجيف وبذل أقصى ما استطاعه من جهد لإرضاء صدّامنا الصغير. الطباخون الجدد الذين

رشحهم منذر لدى انتقاله إلى **السي. إن. إن.** كانوا دون المستوى بمعايير راجيف الذي كان يقوم بجولة في غرفة الطعام ليلاً، يلقي نظرة على ما فوق المائدة ويعلن أنها "خبيصة" فيخرج. وهذه الخبيصة كانت نموذجياً مؤلفة من مقالي فرنسية محروقة، قطع لحم سابحة في صلصة طماطم بلا طعم أو نكهة، أفخاذ دجاج مجففة، حمص وحمص والمزيد من الحمص. اقتنع منذر بالعودة لأسبوع واحد مسايرة لراجيف، غير أنه لم يكن قادراً على حمل بطيختي المطبخين بيد واحدة. أبلغني منذر بأنه كان سيعود لاحقاً في الخريف بعد انتهاء عمله لدى **السي. إن. إن.** سداً للفراغ إلى ذلك الحين جاءنا بصديقه حيدر، أحد معلمي الطبخ في مطاعم بغداد. طعام حيدر البسيط، ذو النمط العراقي لم يحظ بإعجاب راجيف. فمنذر كان قد تدرب في لبنان وأتقن أساليب المطابخ الغربية وكان فنه في الطبخ يعكس تلك الخبرة. كان منذر يعد أطباق الكاري، سندويشات الهامبرغر، والمعكرونة في صلصلة بولونيا، أما حيدر فكان يعد مرقة اللحوم وأطباق الأرز، الطعام العراقي التقليدي الذي كان راجيف قد مله تماماً ولم يعد يطيقه. وذات بعد ظهر جلست مع حيدر، ومعي عمر للترجمة، لدراسة خطة وجبة كنت أرجو أن تجعل راجيف أكثر سعادة، وجبة فيها سندويشات هامبرغر ومعكرونة وكاري على غرار وجبات منذر. توسلت أيضاً إلى حيدر راجيةً إياه أن يعد لي ليلاً طبقاً نباتياً أخف. لبضعة أيام امتثل حيدر، إذ راح يعد سمكاً مقلياً وبطاطا مسلوقة مهروسة، سلطات، أطباقاً من الفاكهة. غير أنه لم يستطع أن يواصل، بل سرعان ما عاد إلى الانشغال بإعداد "خبيصة" راجيف. كنت أبدو الوحيدة المعجبة بفن الطبخ عند حيدر.

بدأت أعد الطعام بنفسي أماسي الجمعة التي كانت أيام عطلة حيدر الأسبوعية. كنت أقوم بذلك في البداية بدوافع أنانية. فأطباق المقبلات العراقية الورقية الصغيرة التي كان السائق الليلي رفعت يجلبها للعشاء كثيراً ما كانت تفسد معدتي وتجعلني أمرض. مساء الجمعة الأول الذي طبخت فيه تسللت إلى

المطبخ نحو الرابعة بعد الظهر وعاينت الخُزُن بحثاً عن أشياء يمكن خلطها وجعلها وجبة عشاء. كان المطبخ مقززاً للنفس. كان في الأساس غرفة فندقية قُلبت إلى مطبخ مزود بفرن غاز، بفريزر، وبراد. كان راجيف مهووساً بالحرص على اتخاذ التدابير الكفيلة بالحيلولة دون تعرضنا للأمراض جراء عدم التزام الأمهات بشروط النظافة الصحية المطبخية، إلا أن إقناعهن بضرورة إعداد الطعام بطريقة مختلفة عن تلك التي يعتمدنها في مطابخهن كان صعباً إن لم يكن متعذراً. أما منذر فقد كان متشدداً، حريصاً على استخدام القفازات البلاستيكية مع إجبار نصير الصغير على استخدامها أيضاً، حين كان الأخير يتولى فرم الخضار. بصرف النظر عن الجهود الكبيرة التي كان منذر يبذلها لرفع مستوى مطبخنا من حيث النظافة والشروط الصحية ولو نسبياً، فإنه كان وسخاً على الدوام. عثرت على قليل من المعكرونة على الرف، من الجبن في البراد، ومن بعض أقراص لحم الهامبرغر من النوع المستخدم لعلف العجول العراقية الجائعة. أحدهم كان رمى كيس اللحم البلاستيكي إلى قعر الفريزر حيث التصق بالدم الدافئ ثم المتجمد. خلطت اللحم والمعكرونة والجبنة فيما جاء مترجمونا الفضوليون وراحوا يتابعون عملي في المطبخ. هل جاء المراسلون إلى بغداد ليطبخوا؟! بدا الجميع حائرين. لم يكن أحد قادراً على تصديق عينيه. قام عمر بالتقاط عدد من الصور لي وأنا أفرم، أحرك، وأتصبب عرقاً في قميصي القطني الضيق الفاخر.

كان المفروض أن يعطل نصير الصغير تلك الليلة مع الطباخ إلا أنه رفض الذهاب مفضلاً البقاء في المكتب. تعلمت كلماتي العربية الأولى مع قيام نصير الصغير بالإشارة إلى الخضار المختلفة آتياً على ذكر الكلمات العربية المقابلة: **ثوم. بصل. فليفلة.** صنعت سندويشات خضار وخبزاً عادياً من لا شيء. في تلك الليلة الأولى جاءت هدى للمساعدة أيضاً، غير أنه تعين علي أن أراقبها، إذ كانت مغرمة بقلي كل شيء في بحر حقيقي من الزيت. كنت أصرخ حين أراها

وهي تدلق الزيت على سندويشاتي النباتية الصحية: "لا زيت! الزيت ممنوع!" كانت ترد بنبرة انتقادية: "يجب أن تضيفي قليلاً من الزيت إلى طعامك يا جاكي" رفضت بإلحاح: "لا، ليس إلى طعامي أنا." كنت مقتنعة بأن أحد أسباب مرضي وشعوري بالغثيان يوماً بعد آخر تمثل، ولو جزئياً، بكثرة الزيت في الطعام. الأمهات كن يقتلنني، محاولات تسميني وجعلي مادة قابلة للزواج. وإذا أخفقن في المهمة، فإن المياه الملوثة كانت ستتكفل بالإجهاز علي. خلال واحدة من النوبات بالغة السوء، أحصيت أنني تقيأت مرة على الأقل على امتداد سبعة عشرة يوماً دون انقطاع.

تمثل تحدي الطبخ الأكبر في العراق بالعثور على العناصر المكونة لإبداعاتي. عدد كبير من البقاليات الأضخم في بغداد كانت تخزن كميات من الأغذية الأمريكية والجبنة، غير أن الرصيد كان لا يزال محدوداً. لحسن الحظ كنتُ قد تمكنتُ من استكشافي المخازن قبل أن تحول خطورة الأوضاع دون خروجي للتسوق بنفسي، تمكنتُ من امتلاك فكرة عما هو متوفر وما ليس كذلك. سألت ذات بعد ظهر لدى كتابة قائمة التسوق لتزويد فلاح بها "هل أنتم متوفرون على الريحان يا بسام؟" لم يكن قاموس بسام الإنجليزي مشتملاً على الكلمة. حاولت وصف النبات مَظْهراً ومذاقاً، غير أننا لم نصل إلى أي نتيجة. ثم انتقلت إلى البصل الأخضر الذي بدا مشطوباً أيضاً. تمثل جزء من المشكلة بكون العاملين الذكور ذوي خبرات محدودة في المطبخ. لو طلبت وصلات كهربائية لما واجهتني أي مشكلة، أما أن أتحدث عن نبات أخضر يدعى ريحان أو حَبَق؟ اهتديت إلى صورة لنبات الريحان وعرضتها على بسام. "يا إلهي! إنه **الريحان**." صاح متعرفاً على النبات. ومنذ ذلك التاريخ وصاعداً صرت، كلما احتجت إلى شيء من المخزن لم يسبق للعاملين أن سمعوا به من قبل، أطبع صورة وأشْكلها بقائمة التسوق. كذلك بقي طبخي محدوداً بجملة المواد المتوفرة في الأسواق ذلك الشهر. كان الخس محصولاً شتوياً. ومثله البصل الأخضر. إلا أن العراق بدا، بصرف

النظر عن الموسم السنوي، متمتعاً بوفرة من الطماطم، الفليفلة الخضراء، والخيار، ذلك الخليط الذي درج العراقيون على تناوله كسلطة باردة مع رشَّة عصير الليمون والخل. كانت معارض الخضار المكشوفة أمكنة أكثر خطراً من أن يتاح لي الذهاب إليها وحدي. كان فلاح يقود السيارة ببطء ماراً بها فيما كنت أنا أتولى معاينة البضاعة المعروضة من النوافذ. "يا إلهي! انظر إلى القرنبيط! انظر إلى السبانخ! لماذا لا يقوم أحد بشراء السبانخ؟" أراد فلاح أن يعرف "ما معنى سبانخ؟" تعين علي أن أعود إلى الفندق وأطبع صورة السبانخ ثم أعيده إلى السوق مزوداً بالصورة.

دون انقطاع، أعددت العشاء كل مساء جمعة طوال وجودي في بغداد، مخترقة خليطاً من الأطباق العراقية: المكسيكية، الكوبية، التايلاندية، الصينية. على الدوام كان كل من بسام، أبي سيف، وعمر، يتأخرون أماسي أيام الجمعة لتناول وجبة العشاء. كنا ندعو أصدقاءنا الغربيين والعراقيين، قالبين وجبات عشاء أماسي الجمعة إلى ولائم وحفلات عشاء. أحياناً، حين كان راجيف يهرب من "الخبيصة"، كنت أيضاً أبادر إلى تدبير أمر عشائنا. كان راجيف يطرح سؤال: "لماذا لا نقوم بتدبير شيء آخر؟" ثم يختفي في غرفته غارقاً في العمل، فيما نهرع "نحن" إلى المطبخ لإعداد العشاء. لم يكن لدي أي اعتراض على إعداد العشاء له، شرط أن يكون سعيداً به. كنت أنظر إلى الأمر من الزاوية التالية: إن رئيس مكتب سعيد كان يعني جاكي سعيدة. كثيراً ما كان راجيف بعد العشاء يلتفت إلي ليقول: "شيء حلو هذه الليلة يا سبن!؟" كان ذلك يعني أنه راغب في قليل من المعجنات أو الحلويات. عادةً كنت أُلبّي حرصاً على الاضطلاع بدوري في القضية. كان لكل منا دوره. إذا كان دوري أنا هو إعداد المعجنات لراجيف، فقد كنت مستعدة للاضطلاع بهذا الدور. لم أتردد إلا مرة واحدة، بعد وقوع حادث مطبخي صغير مؤسف. حين شغلت الفرن وانحنيت لإشعاله بعود للثقاب، انطلقت كرة من اللهب إلى خارج الفرن التهمت شعر رأسي وحاجبي. لدى سماع

صوت كرة اللهب هرع ضياء والأصلع من الصالة إلى المطبخ. راح ضياء يشمشم قائلاً: "تفوح منك رائحة الشي والخَبْز!" استعرضت جسدي. لم أكن محروقة، إلا أن ذراعي اليمنى باتت جرداء من الشعر. كان راجيف هو الآخر، قد سمع الجلبة، وجاء إلى المطبخ. سألني: "ماذا جرى للحلويات؟" نظرت إليه نظرة ذات مغزى. سارع إلى التعليق بشيء من الخوف: "أنت أيضاً بخير، أليس كذلك!؟" تولى الأصلع مهمة الرد نيابة عني قائلاً: "محمد أصلع. جاكي صلعاء." حرّمت على نفسي إشعال الفرن بعد الحادثة. كنت على الدوام أستدعي أحد الحراس للقيام بالمهمة خلال مغامرات الخبز اللاحقة.

مع حلول شهر آب/أغسطس بدأت أخبار وجبات العشاء التي كنت أعدها أماسي أيام الجمعة تنتشر على نطاق واسع، وما لبثنا، راجيف وأنا، أن عقدنا صفقة غير رسمية: كنت سأُعفى من كتابة التقرير الإخباري أماسي الجمعة لأتمكن من التفرغ للعمل المطبخي مدة ثلاث إلى أربع ساعات لإعداد الطعام. ما من مرة عرفت فيها بدقة عدد الأشخاص المتوقَّعين على مائدة العشاء. إذا ساءت الأحوال، تضاءل حجم الحضور؛ إذا ساد الهدوء ـ لا عمليات تفجير كبيرة أو اشتباكات ـ ارتفع عدد القادمين لتناول طعام العشاء إلى عشرين شخصاً أحياناً. ومع إصراري على إبداء الحرص على إضافة ستة إلى ثمانية أشخاص لضمان عدم حرمان الحراس من العشاء، ارتفع العدد الإجمالي للذين كنت أعد لهم الطعام إلى ما لا يقل عن ثلاثين شخصاً. كان من شأن ذلك أن يشكل تحدياً كبيراً في ظل أكثر الأوضاع مثالية، فما بالك ونحن في بغداد!؟ تعين على كل شيء أن يبدأ من الصفر. في الأمسية المكسيكية قمت بشيء الطماطم، الفليفلة الخضراء، البصل والثوم في الفرن، ثم قذفت بها في الخلاط لصنع الصلصة. ساعدني نصير الصغير في عملية تفتيت الجبنة باليد. وماذا عن الخلطة المعجزة؟ نعم كانت ثمة خلطة أشبه بالمعجزة لقد صنعت المايونيز من الصفر. مزاوجة بين البيض وزيت الكانولا في رقصة شيطانية بالغة العنف.

لدى انقطاع التيار الكهربائي، كنا نبقى مع مصابيح البطاريات أو الشموع. أحياناً كان يتعين علينا أن نلوذ ببئر السُّلَّم، مرجئين عمليات إعداد العشاء إلى ما بعد خطر هجمات المورتار. كان الحر في المطبخ شديداً، لا يطاق؛ كانت الحرارة تتجاوز المئة (فهرنهايت) في كثير من الأحيان. لم أفهم لماذا لم يكن راجيف مستعداً لتجهيز المطبخ بمكيف خدمة للأمهات. ذات ليلة، وبعد مساهمته في عملية تقليب سندويشات الكسديلا على الفرن، علق قائلاً: "الجو حار جداً هنا!" قلت لنفسي: **نعم يا صدام الصغير، إنه حار. تلك هي صورة الحياة في الجانب الآخر من السياج!** ذات يوم جمعة دخلت المطبخ قبل العشاء بساعتين فوجدت اللحم والسمك اللذين كنت قد طلبتهما لإعداد سندويشات الهامبرغر من السوق في الفريزر. ساءني الأمر ظانةً أن من شأن هذه اللحوم الجامدة كالصخر ألاّ تتفكك قبل حلول موعد الطبخ. غير أن حرارة جو المطبخ المفرطة ما لبثت أن أذابت الجليد في غضون عشرين دقيقة. تعين علينا، نصير الصغير وأنا، أن نشرب عدداً غير قليل من قناني الماء كي لا نصاب بالنشفان في أثناء الطبخ. كنت أجد نفسي مهدودة من التعب حين نصل إلى مرحلة نقل الطعام إلى المائدة على أطباق من الفضة.

دائماً كنا نبدأ الوجبة بقراءة إحدى القصائد، بمباركة وجبتنا بالشيء الوحيد الذي كنا نتقاسمه جميعاً: حب اللغة. بسام المولع بالشعر كان عادةً يقف عند طرف المائدة ويقرأ ما اخترته من شعر لتلك الليلة. كنت أحاول ربط القصيدة بموضوع العشاء، متصلة عبر البريد الإلكتروني بأختي قبل العشاء بساعات، طالبة منها موافاتنا فوراً بقصيدة جيدة، ملائمة لوليمة عشاء في زمن الحرب، قصيدة كتبها شاعر صيني أو مكسيكي أو أمريكي. ليلة عشائي الأخير في العراق، أرسلتْ قصيدة كانت قد كتبتْها عنا نحن الاثنتين، عن الحب "القائم على الترابط". ومع ذلك فقد بقينا أكثر الأحيان ملتزمين بشاعري المفضل، الشاعر التشيلي المعروف بابلو نيرودا. كنت قد اصطحبت معي إلى بغداد

مجلدين اثنين من أشعاره. كنا أيضاً نقرأ لشعراء عراقيين، صينيين، أمريكيين. كنت أعلق القصائد على الجدار بعد العشاء، وبعد عدد من الأشهر صار جدران غرفة الطعام مغطاة بالقصائد بدلاً من ورق الجدران، وكل منها مذيلة بتاريخ إلقائها.

كنت أعشق هذه الولائم المسائية، أعشق ذلك الوقت الذي شعرت فيه كما لو كنت أعطي من نفسي حقاً. حين كنا نتقاسم المائدة، كان العاملون العراقيون يشعرون كما لو كانوا جزءاً من العائلة، مساهمين أنداداً في عمليتنا الإخبارية المشتركة. لم يكن ليخطر لي قط أن أستبعدهم ـ وجودهم، في الحقيقة، هو الذي كان يضفي البهجة على الحفلات. كان أبو سيف يمتعنا بفيض من القصص عن غرامياته حول العالم حين كان طياراً ومهندساً في الخطوط الجوية العراقية. كنت ألتقط الشاردين في المؤتمرات الصحفية وأدعوهم إلى العشاء. بعد أن قام كاتب مستقل لدى **اليو. إس. إيه.** تودي يدعى تشارلي كرين بإطلاعي على حقيقة أن الصحيفة كانت تدفّعه ثمن وجباته، ألححت عليه أن يبدأ بالمجيء إلى وجبات العشاء أيام الجمعة. ما لبث أن أصبح زبوناً دائماً. ثمة جندي أمريكي التحق بالركب ذات مساء في آب/أغسطس. كان أحد القناصة المكلفين بحراسة سطح الشيراتون. كان يدعى مارك ومن أهالي أعماق ولاية نيويورك. كان في الثالثة والعشرين، وحيداً، ومذعوراً من وجوده في العراق. كانت هذه حفلة العشاء الأولى التي يشارك فيها بعد بلوغه سن الرشد. كذلك لم يكن قد سبق له أن تناول أي طعام هندي، وهو ما كنت قد أعددته تلك الليلة، من قبل. جلس معلقاً بارودته على كتفه، حاشراً جسده الضئيل بين مراسل ملتحٍ كثير الأسفار من **رويترز** وصحفي من جنوب أفريقيا، فيما كنا نوزع قصعات الحمص، العدس، الفروج بالكاري. بدا مصدوم انفجارات خلال الوجبة من أولها إلى آخرها، إلا أنه حرص ألا يفوِّت أي لقمة متاحة.

في كانون الأول/ديسمبر بدأت بإعداد المكتب لاستقبال الأعياد. عائلات عراقية كثيرة، مسيحية ومسلمة دون تمييز، تحتفل بالميلاد مع أشجار ميلاد وولائم عائلية في الغالب. أعلنت بعد ظهر عودتي من المَجر: "نحن بحاجة إلى شجرة، يا شباب!" قبل الميلاد بأسبوع واحد تولى العامل المسيحي الوحيد في المكتب، غزوان، مهمة شراء الشجرة. كرس عمر نفسه لأعمال الإعداد لحفلة عيد الميلاد. وذات بعد ظهر خرج مع غزوان لشراء أدوات التزيين الميلادية لتزيين شجرتنا الصنوبرية الناحلة. عادا ومعهما أكياس بلاستيكية ملأى بزينات رخيصة مستوردة من الصين، بشرائط معدنية لامعة، بمصابيح كهربائية، وبجوارب. عصر اليوم الذي عكفنا فيه على تزيين الشجرة. وضعت كمبيوتري النقال على طاولة غرفة الطعام مجهزاً بآلة تصوير موصولة بالشبكة (الإنترنت). كانت الآلة الصغيرة قادرة على نقل الصور من كمبيوتر إلى آخر. ماماي التي كانت في زيارة لأختي وعائلتها في بيتها الجديد بميريلاند، جلست أمام كمبيوتر آخر وراحت تراقبنا ونحن نزين شجرة الميلاد. وكنا نحن قادرين على رؤيتها على شاشتنا، وهي محدقة في صورة تسعة مسلمين، مسيحي عراقي واحد، وأمريكية، عاكفين على إغناء شجرتنا بالزينات. كان لسان حال السائقين يقول: "انظري، ماما، هذه من أجلك!" وهم يعلقون أدوات الزينة أمام عدسة كاميرا الشبكة، على أغصان الشجرة، ويدورون بعد ذلك للنظر إلى صورة ماماي الرقمية على الشاشة قائلين: "هاي، ماما!" مقلدين ضياء عبر الكمبيوتر "كيف حالك؟ لسنا مقصرين في رعاية ابنتك على الإطلاق. عيد ميلاد سعيد!"

وبعد بضع ثواني خشخش صوت الماما عبر الكمبيوتر: "شكراً!" بعد الشكوى من غياب الأكاليل على مسامع أختي ذات يوم، ذكرتني بأشرطة الأكاليل المصنوعة من ورق الإنشاءات التي درجنا على صنعها ونحن أطفال. أمضيت ساعة كاملة بعد ظهر ذلك اليوم وأنا عاكفة على قص أشرطة من الصحف العراقية. كان مقصي يخترق قصص السيارات المفخخة، عمليات الاختطاف،

وقذائف المورتار العشوائية. قمت بلف أشلاء الدمار حول الشجرة. قلت لعمر: "رمز للأمل!"

خلال زيارتي الأخيرة للولايات المتحدة، اشتريت هدايا عيد الميلاد لجميع العاملين، مدركة أنني لن أستطيع أن أفعل ذلك وأنا في بغداد. وقام العاملون، بدورهم، بشراء هدايا لي ولكارل، فراحت الطرود تتكوم تحت الشجرة. اقترحت الأمهات إعداد طبق عراقي تقليدي معروف باسم **الدولما**، طبق أوراق عنب، حبات بصل، بطاطا، وطماطم محشوة بالأرز واللحم والتوابل، للعاملين. قلت لهن، عبر عمر: "موافقة، ولكن ماذا لو تم إعداد ذلك لغداء العاملين حين يكونون مشغولين بفتح هداياهم يوم عيد الميلاد، فيما أتولى أنا مهمة إعداد عشاء عيد الميلاد؟" مع أنني كنت قد أصبحت مولعة **بالدولما**، فإن عيداً للميلاد دون قصعة من البازلاء الخضراء كان مستحيلاً.

أردت أن أعيد إحياء عيد ميلاد عائلة غرب أوسطية في العراق. هناك في الولايات المتحدة كان من شأن عيد الميلاد أن يكون ثقيلاً على أهلي. فمنذ موت جدتي، أم أمي، في تموز/يوليو، كانت أمي ستقوم بالجمع بين الاحتفال بالعيد، الحزن على رحيل أمها، والقلق علي أنا في العراق. بدت حياتي متحصنة في العراق. وهؤلاء العراقيون باتوا الآن أهلي أيضاً، كما أصبح العراق مألوفاً بالنسبة إلي مثل أي مكان آخر سبق لي أن عرفته.

المسيحيون العراقيون كانوا مشغولين بالاستعداد للعيد غارقين في بحر عميق الغور من الرعب. فالهجمات على المسيحيين العراقيين كانت قد تزايدت في الأشهر الأخيرة، مع شروع المتمردين في استهداف الكنائس، الأعمال العائدة للمسيحيين، ومالكي هذه المؤسسات. بعض المسيحيين الذين كانوا يضعون الصلبان على صدورهم على نحوٍ مكشوف بدؤوا يخفونها تحت ثيابهم. كما أن الصلبان المتأرجحة أمام مرايا السيارات العاكسة للخلف ما لبثت أن زالت. كان

المسيحيون العراقيون، وهم طائفة صغيرة مؤلفة من 180.000 نسمة، قد عاشوا في كنف الأكثرية المسلمة بسلام منذ مئات السنين. غير أن ذلك السلام بدا الآن هشاً، سريع العطب، مهدداً بالخطر مع اقتراب عيد الميلاد.

آخذين ذلك بنظر الاعتبار، قررنا، أبو سيف وأنا، استكشاف إحدى الكنائس لحضور قداس عشية الميلاد. الكنيسة الأولى التي مررنا بها كانت مطوقة بسرب من سيارات الهمفي الأمريكية، فتابعنا طريقنا. تخوف أبو سيف من أن تؤدي محاولة الحماية هذه إلى جعل الكنيسة هدفاً أكبر لأن من شأن هذه الحالة أن تبدو بنظر المتمردين فرصة ذهبية لمهاجمة الأمريكيين أيضاً. لم نكن نريد لوجودهم أن يلفت أنظار المتمردين، فتجاوزناه. عدد غير قليل من الخوارنة أرادوا أن نبقى بعيدين للسبب نفسه، خوفاً من تعريض المصلين للخطر الإضافي المتمثل بوجود مراسلة أمريكية داخل الكنيسة. تابعنا طريقنا ومررنا بكنيستين أخريين، طرقنا بابيهما المقفولين إلى أن وافق خوري كنيسة مريم العذراء في شارع فلسطين شرق بغداد على الاجتماع بنا. كان المصلون عاكفين على وضع اللمسات الأخيرة على تجهيزات قداس عشية الميلاد. نصبوا حواجز فولاذية أمام البوابة الرئيسة لمنع السيارات المفخخة المحتملة من الاقتراب من الكنيسة. عدد من الشباب كانوا يتدربون على تفتيش الغرباء بحثاً عن المتفجرات. كانت الكنيسة قد استأجرت مديراً أمنياً من رعيتها بالذات قبل بضعة أشهر. قال الرجل إنه كان قد جاء إلى الكنيسة صباح ذلك اليوم واضعاً يده على قلبه. أضاف بما يشبه الهمس، وعيناه الزرقاوان تنظران إلى طاولة مغطاة بآيات من الإنجيل وصور مريم، أم يسوع: "نحن خائفون. يخاف الناس المجيء إلى الكنيسة."

كانت المرة الأولى، منذ أزمان قديمة لا تتذكرها حتى العجائز، التي كان فيها المسيحيون العراقيون يستعدون لاستقبال عيد الميلاد مثقلين بأطنان من الحزن والرعب الساحقين للقلوب.

جرى إلغاء عدد كبير من قداديس عيشة الميلاد أو تحويلها إلى ساعات نهارية، وكانت أرتال من سيارات الشرطة تحرس الكنائس ليلة الجمعة. توقع القساوسة تلاوة صولاتهم الميلادية في كنائس شبه فارغة. متسوقو الهدايا، الزينات، والأشجار لم يتسكعوا في الشوارع خوفاً من استهداف المتمردين لهم.

أكد الخوري ناحل الوجه في كنيسة مريم العذراء أنه كان سيهتدي إلى طريقة تمكنه من إيصال رسالة أمل إلى أولئك الذين يتجرؤون على حضور قداس عيد الميلاد.

ثم أضاف يقول: "عيد الميلاد هذا سيكون صعباً. الناس يموتون يومياً. ما من بيت إلا وفيه إصابات وضحايا. ما من بيت إلا وفيه بكاء وحزن، والكنيسة لا تستطيع أن تحتفل فيما دموع الناس تجري أنهاراً. لن تكون سعادتنا إلا بميلاد يسوع المسيح وبالأمل المعقود على أنه سيعيد السلم إلى وطننا."

شد على يدي بيديه وابتسم ابتسامة مطمئنة قائلاً: "لست خائفاً. أنا باقٍ هنا. لست مذعوراً."

سألته عن اسمه، إلا أنه خاف من البوح به.

لدى مغادرتنا للخوري في الأبرشية، رحنا، أبو سيف وأنا، نناقش خطة عودتنا إلى المكان في تلك الليلة. منطلقاً نحو الباب المفضي إلى الكنيسة، قال أبو سيف: "لحظة واحدة!؟. أختلس النظر من ثقب الباب، عاين المكان، ثم عاد ليستأنف الحديث. سألته مرتبكة:

"ما الذي كنت تفعله؟"

"أردت أن أحدد المكان الذي سنجلس فيه. أردت العثور على مكان قليل الزجاج تحسباً لاحتمال حصول تفجيرات."

قررنا أننا كنا سنحتاج إلى ثلاث سيارات: أنا في المصفحة، عنصر مسلح

في السيارة الثانية يكون واقفاً مكشوفاً ومضطلعاً بدور الراصد، ومترجم في الثالثة احتياطاً تحسباً لاحتمال حصول تفجير. لم يكن السؤال المطروح: "**هل** سيقع انفجار؟" بل "**متى** سيقع هذا الانفجار؟".

عدت إلى المكتب وناقشت الخطة مع كارل. بدا قلقاً. قال: "خذي رأي ديفيد!". اتصلت بديفيد هوفمان وناقشت الخطة معه. كان مضطرباً. أفاد ديفيد بأن العملية بدت مخاطرة بالغة الضخامة ومرعبة ثمناً لقصة، غير أن القرار كان، آخر المطاف، قراري أنا. لم تكن لدي أي فكرة عما كان ينبغي فعله. أعني، كنت مهزوزة ومترددة، ولكن عند أي نقطة كان الخوف يفسد محاكمتي؟ كنت أعلم أن مراسلين كانوا عازمين على الذهاب إلى كنائس. كما كنت أعلم أن تدابيرنا الأمنية كانت بين الأكثر تشدداً وصرامة في بغداد. وبعد ذلك فكرت بجميع الناس الذاهبين معي إلى الكنيسة من أجلي أنا: غزوان، أبو سيف، ثلاثة سائقين، عمر أو بسام للانتظار في الخارج. لا، لا أستطيع الإقدام على مثل هذا الأمر. ما كنت لأستطيع تعريضهم جميعاً لمثل هذا الخطر. قلت لكارل: "أعتقد أن عندي ما يكفي لكتابة قصة حول الموضوع دون الذهاب إلى الكنيسة".

أجاب: "إنه قرارك يا سبنو!" غير أنني لم أستطع إلا أن أتابع التساؤل: هل كنت قد تصرفت التصرف السليم؟ كنت أمقت هذا النوع من التردد. أرسلت مقالتي الميلادية بما توفر لدي. عكست المقالة حزن وذعر أناس خائفين إلى درجة الامتناع عن الذهاب إلى الكنيسة. كنت واحدة منهم.

بعد إرسال مقالتي إلى واشنطن كافأت نفسي في المطبخ إذ انشغلت بإعداد المعكرونة بالسبانخ وكرات اللحم لعشاء الميلاد. كان كارل قد دعا عدداً من المراسلين إلى العشاء، وبعد تناول الطعام، شَغَّلْنا نشيد الميلاد الكلاسيكي **إنها حياة رائعة** على قرص دي. في. دي. ورحنا ننتظر قرع الجرس الصغير. كانت الليلة هادئة. لا متفجرات نَجَتْ كنائس بغداد الخاوية.

كان ميلادنا زاخراً بالموسيقا والضحك وطقطقات أوراق اللف المنزوعة عن الطرود. كارل وأنا جلسنا في غرفة الجلوس محاطين بأكوام من الهدايا وبأفراد عائلتنا العراقية. بادر العاملون التواقون إلى قلب الفتاة الغلامية (الحسن صبي) إلى سيدة مرموقة إلى تكريمي بهدية مؤلفة من عدد من قطع المجوهرات: عقود وأساور ذهبية وأقراط فضية. هديتي اشتملت أيضاً على خمس ساعات، عقدين مزينين بحرفي "J"، أربع أساور، صليباً من الذهب الخالص في علبة ذات بطانة مخملية حمراء، مشهداً زجاجياً دواراً للمزود، وأرنبة وردية عملاقة تغني: "تونكل، تونكل لتل ستار" عندما يُضغط على مخلبه. تأثرت بكرمهم، بطريقة استغراقهم الصادق في "عيدي."

شارحاً سبب دعوتي إلى تسلق السلم لتثبيت النجمة في قمة شجرة الميلاد، قال ضياء: "هذا عيدك أنت!"

لقد تقاسمنا هذا اليوم، تقاسمنا فيضاً من أماني السعادة والسلام. فكرت بعدد المرات التي رأيت فيها تلك العبارة - "وعلى الأرض السلام" - في سائر الأعياد هناك في الولايات المتحدة. **حقاً وعلى الأرض السلام**، كنت أفكر وأنا أحضن كلاً من العاملين العراقيين في عناق ميلادي.

أمضى كارل النهار عاكفاً على كتابة مقالة عيد الميلاد، فيما أمضيته أنا في المطبخ تنفيذاً للصفقة التي كنا قد عقدناها. جاءت هدى لتساعد في أعمال الإعداد. تبرع مستشارنا الأمني الأمريكي بتحريك الصلصة بعد قيامي بسحب الديك الرومي ذي الأرطال الثلاثين من الفرن. كنت متزينة بجميع المجوهرات التي أهدانيها العاملون بمناسبة عيد الميلاد لدى انشغالي بإعداد حساء الفطر البيتي لتنكيه طبق البقول الخضراء. لقد نجحنا في إقامة وليمة معتبرة: ديك رومي، بطاطا مهروسة مع صلصة، فطيرة الذرة، بازلاء خضراء، جبنة بروكولي وفلفييتا (كانت أختي قد زودتني بها في تشرين الأول/أكتوبر، متوقعة احتمال

احتياجي إليها في العيد). لم يكن ناقصاً إلاّ كعكة الفواكه. قامت هناء بإعداد معجنات لم تكن ناجحة كثيراً لأن التيار الكهربائي انقطع فيما كانت تخبزها في فندقها. كانت قد عزمت على جعلها حمراء فاقعة متناسبة مع العيد ولكن التلوين الغذائي الوحيد المتوفر في بغداد كان قد نفد. جزء من الديك الرومي لم يكن ناضجاً، مما دفع كارل إلى تقليم الأطراف الوردية بدت البطاطا المهروسة مائلة إلى الميوعة أشبه بنوع من الفطائر. إلا أننا ما لبثنا أن حصلنا على معجزتنا الميلادية حين ظهر منذر مع جذع شجرة ميلاد تقليدية. كنا عائلة، وفعلنا ما تفعله العائلات حين يأتي أقارب مبعدون إلى عشاء عيد الميلاد. رحبنا به وبالجذع الأخضر المتجمد بأذرع مفتوحة. وعلى الأرض السلام.

في عيد الميلاد الأخير الذي عاشه، تَغَيَّب أبي عن قداس ضوء الشموع الذي درجنا، دائماً، على حضوره كعائلة. ظن أنه كان مصاباً بنزلة برد. بعد بضعة أسابيع اكتشفنا أن الأمر لم يكن نزلة برد بل قضية سرطان، سرطان بات منتشراً ولم يعد الإنقاذ ممكناً. افتقدناه في الكنيسة عشية عيد الميلاد تلك، إلا أننا لم نتطلع إلى الإكثار من رؤيته. لم يخطر ببالنا احتمال موته في أقل من أربعة أشهر. لو علمنا لغدا القداس جحيماً بالنسبة إلينا. أزحنا الأمر جانباً بوصفه إحباطاً، خللاً مؤقتاً في مسلسل تقاليدنا العائلية.

باستثناءات قليلة، كنا إحدى تلك العائلات المحظوظة نادرة الابتلاء بالتفرق في أعياد الميلاد. ثمة كان افتقادي أنا حين كنت أعيش في مينيسوتا ومضطرة للعمل إلى ساعة متأخرة من عشية عيد الميلاد. مهدودة من التعب وغير قادرة على السفر أو على أخذ إجازة من العمل، كنت أقتنع بعيد ميلاد مثقل بالوحدة ورثاء الذات. غير أن أختي لم تكن مستعدة

لقبول كل هذه الأعذار. قامت بحجز غرفة فندق لي في منتصف الطريق بين مينيا بوليس وشيكاغو، حيث كانت عائلتي ستجتمع للاحتفال بالعيد، فانطلقت كالإعصار مندفعة اندفاعاً أعمى وراء حب توأمتي إلى سوبر إيت القريبة من ماديسون الوسكونسونية. كنت أعرف أن هدية أختي كانت لها هي بمقدار ما هي لي أنا، غير أنني شعرت، مع ذلك، بشيء من الخجل لأنها اضطرت إلى دفع أجرة غرفتي. ومع أننا كنا قد حصلنا، كلينا، على درجة الماجستير قبل عام واحد، فقد كنت لا أزال أكافح لتدبر أموري في حين كانت هي قد بدأت أخيراً تحصل على مرتب "راشدين" في البريد. وعدتُها: "سأسدد لك المبلغ فيما بعد."

اعترضت قائلة: "مستحيل! من الآن فصاعداً انظري إلي بوصفي الأخت السُكَّرة!"

بالغت الأخت السكرة في البذخ من العراق، إذ فاجأتنا بطوفان من الهدايا التي اشترتها على الخط وأمرت بشحنها إلى عتبات أبوابنا. حصل ابني على ألعاب توماس الدبابة تكفي لجيش كامل من الأطفال. بدأت أخاف ساعي البريد، لمعرفتي بأن ما درج عل إيصاله إلى زقاقنا لم يكن سوى أخبار موت في العراق. في أثناء إجازتها بالمَجَر اتصلتْ جاكي لإعلامي بأنها اشترتْ هدايا لنا جميعاً وعازمة على شحنها إلى عنواني لأتولى توزيعها. كانت تأمل بأن تصل الطرود في الوقت المناسب؛ كانت مصرة على ذلك. وقد وصلتْ بالفعل عشية الميلاد. جميع الطرود التي كانت من قبل ملفوفة بعناية فائقة كانت مكومة كيفما اتفق في قعر الصندوق، وأوراق اللف ممزقة حيث قام موظفو الجمارك بفتح كل الطرود. جميع لصاقات الأسماء زالت. ثمة كانت قضبان من الحلويات، الشوكولا، تقاويم وجبات مَجَرية لذيذة ولكن غير قابلة لتحديد المواصفات، وفتّاحات قناني. جميعها

تحف زهيدة القيمة، في الحقيقة، ولكنها أشياء بسيطة تقول: "لقد لمست هذه وفكرت بك. لا تنسني!"

في تلك الليلة، خلال قداس للشموع في ميريلاند، جلست بجانب أمي لافة كتفها بذراعي أحاول تهدئة روعها بمقدار ما أسعى إلى طمأنة نفسي. عندما نهض جمهور المصلين لتلاوة نشيد "تعالوا يا كل المخلصين!" لم نستطع، أمي وأنا، امتلاك إرادة القيام. مسحوقتين تحت وطأة قلق دام سبعة أشهر ومستقبل يكفِّنُه المجهول، بقينا جالستين غارقتين في دموعنا، جاهدتين لمواكبة الإنشاد، جاهدتين لعدم فقدان الأمل.